سادسا/ مجالات الحضارة الإسلامية

لقد اتسع تأثير الحضارة الإسلامية في الأمة التي استظلّت بها، وقادت الإنسانية على أساسها قروناً طويلة، وفيما يلي نذكر آثار الحضارة الإسلامية في:

- ✓ **مجال العقيدة**
- ✓ **مجال الخدمة العامة**
- ✓ **مجال العلوم**

1) آثار الحضارة الإسلامية في مجال العقيدة:

استهدف الإسلام إخراج الإنسان من الظلمات إلى النور،ومن عقائد الشرك إلى عقيدة التوحيد،وذلك بتبصيره بالطريق الصحيح التي يهتدي بها إلى الخالق،فأمره بإعمال العقل و ودعاه إلى التأمل والتفكر في الكون ومظاهر الحياة وأسرارها،ونهاه عن التقليد في العقيدة،وحذره من أخذ ما كان عليه آباؤه و أجداده من شرك ووثنية من غير نظر فيه أو تمحيص له.

ولقد كان لهذا المفهوم أثر كبير في حياة البشر،فقد تحرر مشركو العرب من أوثانهم وممّا كان عليه آباؤهم من ضلال،وتحررت كذلك الشعوب التي أظلها الإسلام من معتقداتها التي بنيت على تصورات خاطئة من الأوهام من الأوهام والخرافات التي انحرفت بهم عن الطريق السوي،والتي يأباها الإيمان الصادق كالتحرير من عبادة النار،وتقديس البقر،وتقديس التماثيل والأصنام والأوثان والشمس والقمر والنجوم والملائكة والجن لدى العرب والفرس والهنود والشعوب الأوروبية وغيرها .

ولم تستطع هذه الوثنيات أن تقف أمام الإسلام،بل بسطت الحضارة الإسلامية تعاليمها وأفكارها ومفاهيمها على البلاد التي أظلتها هذه الحضارة،ونقلت شعوب هذه البلاد نقلة واسعة عميقة من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد،وبنى المسلمون من هذه الشعوب جمعيها مجتمعًا إسلاميًا على أساس من عقيدة التوحيد وفي إطار التعاون والتكافل والمساواة والعدل،وصهرهم الإسلام في بوتقة واحدة عقيدة و لغة وقوة و غاية و منهج حياة فاستحقوا بذلك أن يكونوا خير أمة أُخرجت للناس.

والخلاصة فإن الحضارة الإسلامية قد قامت بدور كبير في مجال العقيدة فيما يلي:

- الدعوة إلى التوحيد القائم على اليقين والاقتناع المستنير.
- الدعوة إلى استعمال العقل وتحريره من الخرافات والأساطير.

- الدعوة إلى التخلص من سلطان التقليد الأعمى والكنيسة.
- الدعوة إلى تحرير الإنسان من العبودية لغير الله حتى يكون الإنسان عاملا منتجًا في هذه الحياة مؤديًا رسالة الخير إلى العالم.
- الدعوة إلى ربط الإيمان بالعمل،وعدم الفصل بين النظرية والتطبيق،وبهذه الدعوة التي حملتها الحضارة الإسلامية فإنّها تكون قد ربطت دنيا الإنسان بآخرته،وأعطته التصور السليم عن الكون والإنسان والحياة،في إطار من الرؤية المقنعة للعقل والمطمئنة للقلب و الوجدان،والمحُركة للجوارح[1].

[1]لمزيد من التوسع ينظر: كتاب **"ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين"،أبو الحسن علي الحسني الندوي.**

2) آثار الحضارة الإسلامية في مجال الخدمة العامة:

لقد استحقت الحضارة الإسلامية قيادة العالم،وليس أدل على ذلك ممّا انطوت عليه من نزعة الخير والرحمة والرأفة والتعاون،فأَمِنَ من استظل بظلها ،واطمأن من عاش على أرضها من البشر،وشملت برحمتها حتى الحيوان.

لقد انطلق المسلمون يتنافسون في أعمال البر والخير، سواء أكانوا حكامًا أم محكومين، وتعاونوا على البر ابتغاء مرضاة الله وامتثالاً لأمره، فكان أن قامت في ظل هذه الحضارة **المؤسسات** التي تفيض بالبر والخير، وتجسد رعاية الحاكم للمحكومين، وترسّخ تعاون أفراد المجتمع، وإنّه من الصعوبة البالغة تقصيّ هذه المؤسسات، ومازالت بعض هذه المؤسسات قائمة إلى يومنا هذا **كالمساجد والتكايا و الزوايا** التي يصنع فيها الطعام للفقراء وأبناء السبيل. ومن المؤسسات التي أقاموها أيضًا **المدارس ودور العلم، والمكتبات والمستشفيات والخانات والفنادق والحمامات**، وكذلك البِرك والآبار التي حُفرت في طول البلاد وعرضها ليشرب منها المسافرون، وغير ذلك من منشآت الخدمة العامة.

وكان الحكام يقومون على إنشاء هذه المؤسسات، وكانوا يتنافسون في ذلك، كما كان أفراد الرعية يقومون على إنشائها **ووقفها** في سبيل الله، وكثيرًا ما كانوا ينافسون الحكام، وكانت هذه المؤسسات تُموّل من الدولة، كما كانت تُمول من الأموال التي **تُحبس** عليها من أهل البر والإحسان تقربًا إلى الله تعالى.

هذه **المؤسسات الاجتماعية** كثيرة، وقد حرصت على إقامتها الدولة من باب الرعاية لشؤون الأمة. كما حرص على إقامتها الحكام وأفراد الرعية برًا و إحساناً تقربًا إلى الله ليرتفع المسلمون بمستوى معيشتهم ويحصلوا على درجة أفضل من العيش والتمتع بالطيبات والشعور بالراحة والاطمئنان.

ومن الجدير بالبيان أن مثل هذه الأعمال الاجتماعية التي تفيض بالرحمة و الرأفة لم تشمل آثارها البشر فحسب، بل امتدت لتشمل الحيوان. فقد مضت الشريعة بتحريم تعذيب الحيوان وايذائه ودعت إلى الرأفة والرفق به لدرجة تتصاغر بجانبها كل دعوة تنادي بالرفق بالحيوان. ولقد أخذ المسلمون بما أوجبه الله عليهم من رفق ورحمة بالحيوانات واعتنوا بها وكشفوا عنها الأذى حتى أنه كان من وظيفة المحتسب أن يراقب الناس فيما يفعلونه مع دوابهم. وإلى جانب هذه المراقبة من الدولة كانت هناك **مؤسسات للحيوان** يلقى فيها التطبيب والمعالجة،وتوفير العلف له،وكانت تُحبس المراعي للخيول العاجزة لترعى فيها إلى أن تَنفُقَ[2].

[2] لمزيد من التوسع ينظر: كتاب "**من روائع حضارتنا**"،**مصطفى السباعي**.

3) آثار الحضارة الإسلامية في مجال العلوم:

إن الحديث عن المنجزات التي قدمها المسلمون في مجال العلوم يتطلب تبيان المسألتين التالتين:

الأولى: منهج البحث الذي نهجه المسلمون في العلوم.

الثانية:العلوم التي قدمها العلماء المسلمون.

أولا: منهج البحث:

إن من يتلو القرآن الكريم ويتأمل آياته يدرك إلى أي مدى كانت دعوة القرآن الكريم إلى العلم والمعرفة.ويدرك كذلك أن القرآن الكريم قد رسم للمسلمين المنهج الحق في البحث في الفكر و العلم.مما كان له الأثر البالغ في هذه الثروة الفكرية والثروة العلمية اللتين تفخر بهما الحضارة الإسلامية على سائر الحضارات.

فمن حيث منهج البحث الفكري فإن القرآن الكريم قد دعا إلى المنهج الذي يرافق العقل و أحكامه،وهو منهج يقوم على الحجة والبرهان والدليل العقلي،و لا صحة لشيء إلا بدليل أو البرهان العقلي،قال تعالى ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (117﴾ [المؤمنون: 117] وقال تعالى ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) ﴾ [البقرة: 111].وهو منهج يقوم على التثبت من النقل وعلى الفقه بقواعد فهم النصوص القرآنية والنبوية،وقواعد استنباط الأحكام منها،وضوابط القياس مما هو معروف في علم أصول الفقه،مما لم يتوافر في أي دين آخر أو نظرية وضعية،و أما منهج البحث في العلم فهو منهج دعا إليه القرآن الكريم في كثير من آياته واتبعه العلماء المسلمون في مجال العلوم التجريبية،وهو منهج يقوم على الملاحظة والتجربة وهما طريق الوصول إلى الحقائق العلمية،وهذا ما أكده **الحسن بن الهيثم**،وهو المنهج العلمي الذي مازال قائما حتى اليوم،وقد أخذه الغرب عن **"الحسن بن الهيثم"** و زعموه " لروجر بيكون" و "فرانسيس بيكون" و"جون مل ستيورات"،وقد رفض هذا الزعم مفكرون غربيون،فهذا الأستاذ " **بريفلوت**" لم يقف عند حد إقرار دور العلماء المسلمين وأصالة منهجهم في البحث العلمي،بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين قرر في كتابه " **بناء الانسانية**" أن هذا المنهج،منهج إسلامي أصيل لم يعرفه اليونان،ولولا المسلمين لما عرفته أوروبا .وقال أيضا:" **لقد نقل روجر بيكون هذا المنهج عن المسلمين بعد أن درس اللغة العربية والفكر الإسلامي على أيدي معلمين تتلمذوا على العلماء في الأندلس و روجر نفسه لم يَمَلَّ قط من التصريح بذلك وهو يُعلم معاصريه أن اللغة العربية وعلوم المسلمين هي الطريقة**

الوحيدة لمعرفة الحق" .فالمنهج العلمي التجريبي عند المسلمين ليس تصحيحا أو تعديلا لمنهج اليونان،بل ابتكارا يرتكز في فلسفته على النظرة إلى الكون والإنسان والحياة.

وكما أن المسلمين انطلاقا من عقيدة التوحيد ابتكروا وأصّلوا منهج البحث العلمي،فإنهم أصّلوا كذلك الصفات الخلقية والعلمية للباحث والعالم،فقد اشترطوا في البحث **التواضع والصدق والأمانة والنزاهة والعدل والبعد عن الهوى وتجنب التعصب والتحيز**،كما اشترطوا في الباحث **اليقظة وقوة الملاحظة**.

والمسلمون هو الذين **ربطوا بين العلم والدين**.ذلك أن الإسلام جعل العلم بأسس الدين فريضة عينية،وجعل العلم بتفصيلاته وبالعلوم التجريبية والتطبيقية فرضا كفائيا،فلم يكن الدين عندهم عدوا للعلم كما هو الحال في عداء الكنسية للعلماء.كما أن المسلمين ربطوا بين العلم والعمل،وبين العلم والحياة،فلم يكن عندهم العلم نظريا ميتافيزيقيا تأمليا،وإنما كان وسيلة نافعة للأمة في مواجهة قضاياها وتيسير أمور معيشتها،وما يساهم في تقدمها المعنوي والمادي.

ثانيا: العلوم التي قدمها العلماء المسلمون:

في إطار منهج البحث العلمي عمل المسلمون في ميادين الطب والكيمياء والفيزياء والفلك والجغرافيا،وهم يعلمون أنهم في عبادة عظيمة يثابون عليها أعظم ثواب ما داموا باحثين في هذه العلوم،ومن أجل ذلك حالفهم التوفيق فألفوا واخترعوا،وكانوا سادة العالم في هذا المضمار،وفيما يلي لمحات عن هذه المنجزات العلمية،ذلك أنه من الصعوبة البالغة أن نبسط القول فيها بإسهاب. وبوسع من أراد الاستزادة أن يطلبها من مظانها وهي كثيرة و أغلبها ميسور[3].

- **الطب:**

الطب من العلوم التي اهتم بها المسلمون اهتماما بالغا،وكان لهم فيه منجزات عظيمة.يروي أبو القاسم صاعد الاندلسي في كتابه "طبقات الأمم": أن المسلمين اهتموا بالطب بجانب اهتمامهم البالغ بلغتهم ومعرفة أحكام شريعتهم عملا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :"تَداووا عبادَ الله،فإن الله لم يضع داءً إلاّ وضع له دواء غير واحد" قيل:يارسول وما هو؟قال:"الهرمُ"[4].

[3] لمزيد من التوسع انظر بالأخص: **تاريخ العلوم عند العرب،عمر فرّوخ. العلوم عند العرب،قدري طوقان.**

[4] رواه أحمد وابن حبان والحاكم عن أسامة بن شريك وهو صحيح.

ولقد أخذ المسلمون هذا الأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم،فاتجهوا إلى الطب،و نبغوا فيه،حتى صار الطلاب يأتون من جميع أنحاء العالم إلى مدارس المسلمين لنهل العلم من الطب والصيدلة وغيرهما من العلوم.

و إذا تصفحنا قوائم الكتب والمؤلفات كـ"**عيون الأنباء في طبقات الأطباء" لابن أبي أُصبيعة**،و **"الفهرست" لابن النديم** وغيرهما،فإننا تستطيع أن نقف على ثروة علمية هائلة في الطب وهذه لم يُتلف منها إلاّ قسم ضئيل،وقد تُرجمت كلها إلى أوروبا .وهي تتصدر خزائن الكتب الأوروبية وغيرها ."ولقد بقيت كليات الطب في جامعات أوروبا تستند تماما في مقرراتها على إسهامات علماء المسلمين في الطب" . ويقول كل من **قراتان وشارلز** في كتابهما "**السحر والطب عند الأنجلو سكسوني**":" **و مما لا يقبل الشك أن تأثير علماء المسلمين في الطب على أطباء أوروبا لا يحتاج إلى برهان**" .

" **وتدل الوثائق التاريخية على أن جميع الأطباء والمؤلفين الأوروبيين في الطب استقوا معظم كتاباتهم في الطب عن المسلمين لا عن اليونان**" .

و إلى أطباء المسلمين يعود الفضل في وضع **منهج للطب** و هو أساس المنهج العلمي الحديث،و ذلك باعتمادهم على **التجربة والملاحظة والتشخيص الذاتي،و استخدام العقاقير والجراحة** .فقد استطاعوا أن يضعوا لكل داء دواءً،فأنقذوا الطب مما اختلط به من الخرافات والسحر والتعاويذ والتمائم التي توارثتها أجيال القدماء من الأمم.

لقد نبغ في الطب كثيرون نذكر من كبارهم" **الرازي**" وهو **أبو بكر بن زكريا** (251 – 313 هـ = 865 – 925 م)، ويُعد من أشهر أطباء المسلمين.ولقد خصصت له **جامعة برنستون** بأمريكا أضخم ناحية في أجمل أبنيتها تخليدا لمآثره،والرازي حجة في الطب في أمريكا و أوروبا من غير منازع،وأشهر كتبه "**الحاوي**" الذي جمع فيه صناعة الطب،ويقع في **ثلاثين مجلدا** وله غيره مما يزيد عن **مئتين وعشرين مؤلفا** .

و من الأطباء " **خلف بن عباس الزهراويّ الأندلسي**" (ت 427 هـ = 1036 م) ولد في الزهراء (قرب قرطبة) . جاء في دائرة المعارف البريطانية" **إنه أشهر من ألف في الجراحة عند العرب، وأول من استعمل ربط الشريان لمنع النزيف**".وهو فخر الجراحة في الطب في الإسلام، وإليه تعود صناعة آلات الجراحة واستخدامها . و أشهر مؤلفاته : " **التصريف لمن عجز عن التأليف**" و يقع في **عشرين مجلدا** ضخما . وهو **أبو الجراحة في أوروبا** بلا منازع.وقد اشتغل بمرض السرطان و علاجه، وأعطى هذا المرض الخبيث وصفا وعلاجا بقي يستعمل خلال العصور حتى الساعة.فلم يزد أطباء القرن العشرين كثيرا على ما قدمه علاّمة الجراحة.

و من الأطباء **"ابن نفيس"**،و من أشهر كتبه **"شرح تشريح القانون"**، وهو مكتشف الدورة الدموية التي زعمها الطبيب الإنجليزي "وليم هارفي" إلى نفسه. غير أن بعض المنصفين من العلماء الغربيين قد اكتشفوا ذلك الزعم وعابوا عليه فعلته.و من الأطباء المسلمين **"ابن سينا"** وله كتاب **"القانون"** ، و**"علي بن عيسى الكحال"** وله كتاب **" تذكرة الكحالين"**، ويُعد أشهر كتاب في طب العيون،و **" ابن زهر الاشبيلي"**،وهو من أسرة اشتهرت في الطب وغيرهم كثير،فلقد ذكروا أنه كان في زمن الخليفة المقتدر بالله **ثمانمائة وثيفا وستين طبيبا** ،وكلهم ترك مؤلفات هي غاية في الأهمية وقام الغرب بترجمتها و دراستها .

أما ابتكاراتهم في الطب فهي كثيرة.فهي عدا عن المنهج التجريبي الذي يُعد أساسا لدراسة الطب،فإن هناك القواعد العامة التي وضعوها ضمن ميثاق أخلاقي يتوجب على الأطباء الالتزام بها ،ويتعين عليهم أن يكتموا أسرار مرضاهم،وألاّ يزاولوا صناعة الطب إلا بعد إجازة.وهناك الكثير من الأمراض التي اكتشفوها كالجدري والحصبة والسل.ولأطباء المسلمين جهود عظيمة في الأمراض التناسلية والسريرية.والأطباء المسلمون هم **أول** من ربط بين علاقة العين والدماغ،وهم أول من انتبه إلى الأمراض العقلية والنفسية،و**أول** من وضع طريقة الفحص الطبي (التشخيص) حسب المفهوم المتبع أيامناهذه،وهم **أول** من تعرض إلى طب الأطفال من قبل أن يولد الطفل وتركوا في ذلك مؤلفات كثيرة.

وأما منجزاتهم في حقل الجراحة فهي عظيمة فلقد أجروا العمليات الجراحية المختلفة في البدن والعين و أجروا العمليات التجميلية وعالجوا كسر العظام،وقد كانت عند اليونان والأوروبيين تُوكل إلى الجزارين والحلاقين و المشعوذين.وكانت صناعة آلات الجراحة ذات مستوى رفيع،والأطباء المسلمون هم الذين استخلصوا العقاقير من النباتات والأعشاب،وهم **أول** من استعمل قوالب خاصة لتغليف الدواء المر[5].

- **الصيدلة:**

والمسلمون هم **أول** من وضع أُسس فن الصيدلة،فهم **أول** من أنشأ مدرسة للصيدلة،و مخازن الأدوية والصيدليات،و أقاموا الرقابة عليها في كل مدينة،وأطلقوا على من يقوم عليها الصيدلاني.وكان الصيادلة لا يتعاطون صناعتهم إلاّ بعد دراسة و إجازة و

[5] للمزيد في التوسع،يُنظر:تاريخ العلوم عند العرب،عمر فرّوخ. العلوم عند العرب،قدري حافظ طوقان.شمس العر ب تسطع على الغرب،زيغريد هونكة.أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية،أحمد علي الملا . حضارة العرب،غوستاف لوبون.

ترخيص.وكان الصيدلاني يرتدي ثيابا بيضاء ويقف بباب صيدليته يصرف الدواء ومن ورائه الأرفف الممتلئة بالأوعية والعقاقير والقوارير.

وكان إلى الصيادلة يُرجع في تحضيرالعقاقير والوصفات التي تُكتب للمرضى،و لهذا أُلحقت الصيدلة بالمستشفيات والعيادات.

وفي الصيدلة وضع العلماء المسلمون مصنفات نفيسة تناولت الأدوية وتركيبها ،واستخلاص العقاقير من الأعشاب والحشائش كما تناولت الأغذية وتصنيفها .وكان للعلماء كـ"**جابر بن حيان**" وعلماء البنات كـ"**ابن البيطار**" وغيرهما اليد الطولى في ذلك لما قدموه من بحوث في صفات المواد والنباتات والأعشاب.ولقد أبدع الصيادلة في فن مزج المواد الكيماوية في شكل أقراص ومحاليل وتوصلوا إلى تغليف الحبوب التي كانوا يصفونها للمرضى.

ولقد توصل المسلمون إلى عمل الترياق المؤلف من عشرات بل مئات الأدوية،واستحضروا إلى جانب ذلك المستخلصات العطرية من الورد وسائر أنواعه.ومن المصنفات القيمة في علم الصيدلة كتاب "**المعتمد في الأدوية المفردة**" من **تصنيف الملك المظفر يوسف بن عمر التركماني** المتوفى سنة 694هـ، وكتاب "**الأقرباذين**" (علم الأدوية) لـ"**سابور ابن سهل**(255هـ)"،وهو من الكتب المهمة ويحتوي على اثنين وعشرين بابا في الأدوية.ويُعد كتاب "**تذكرة داود الأنطاكي**" وهو كتاب ضخم من أهم الكتب في الصيدلة والعقاقير.

وعلى العموم فالطب المعاصر مدينٌ للمسلمين بعقاقير كثيرة كما هو مدينٌ لهم بفن الصيدلة وبكثير من المستحضرات التي لا تزال تستعمل كاللزقات والمراهم والمياه المقطرة.

- **المستشفيات:**

وكان يطلق عليها " **البيمارستانات**" وقد شيدها المسلمون على أساس من المنهج العلمي ،من حيث المكان وتصميم البناء وتنظيمه وهذا ما جعل **غوستاف لوبون** يقول:" **ويظهر أن مشافي العرب التي أُنشئت فيما مضى أفضل من مشافينا الحديثة،فقد كانت واسعة ذات هواء كثير و ماء غزير**" . كما أنها كانت تسير على نظام دقيق و أصول مرعية لا تتميز عنها المستشفيات الحديثة إلا بما هو من طابع مدنية هذا العصر،فقد كانت مزودة بالأدوية و الأطعمة والأشربة والملابس،و كانت بعيدة عن أماكن الضوضاء .

وتنوعت المستشفيات عند المسلمين وعمت ديار العالم الإسلامي، منها ما كان عاما لجميع أمراض البدن،ومنها ماكان خاص ببعض الأمراض العقلية،والجذام،والسل،وهناك المستشفيات الجراحية.ومن المستشفيات ما كان ثابتا في المكان الذي أُقيم فيه،و منها ما